خطبة صلاة الجمعة 28/ 11/ 2025 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(المستخلفون في الأرض)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

أخرج الإمام الترمذي عن عبد الله بن سلام ﷺ قال: أول ما قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ انْجَفَل الناس إليه، فكنتُ فيمن جاءه، فلما تأمَّلْتُ وجهه واسْتَثْبَتُّه، عرفتُ أنَّ وجهه ليس بوجهِ كَذَّاب، قال: فكان أولَ ما سمعتُ من كلامِهِ أن قال: «يا أيُّها الناس، أفْشُوا السلام، وأطعموا الطعام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنةَ بسلام»

عنوان خطبة اليوم: المستخلفون في الأرض

أيها الإخوة:

في مثل يوم أمس بدأ تحرك الثوار لخوض معركة ردع العدوان التي جعلها الله باباً للنصر والفتح، ومكّن الله لعباده المؤمنين تمكينا ونصرهم نصراً عزيزاً، واستخلفهم في الأرض.

واستخلاف البشر في الأرض نوعان: استخلاف عام، واستخلاف خاص.

فالاستخلاف العام هو استخلاف جميع البشر في الأرض ليعمروها ويفيدوا من خيراتها ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]، وقد بدأ هذا الاستخلاف بآدم عَلَيْهِ السلام.

والاستخلاف الخاص هو الاستخلاف في الحكم باستخلاف الدول واستخلاف الأفراد، فيستخلف الله دولة بتحريرها واستقلالها بحكم نفسها، ويستخلف الأفراد بالرئاسة والسلطان والملك والإمامة.

ولئن كان الاستخلاف امتناناً فإنه في الوقت ذاته امتحان، يبتلي الله به عباده المستخلَفين ويمتحنهم ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: 165]، فإن استقام المسْتَخْلَفُونَ على أمر الله مكن الله لهم في الأرض، وآتاهم من كل شيء سَبَبًا، ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84]، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: 56].

وإن كفروا بأنعم الله – والعياذ بالله– وكذبوا بآياته وخرجوا على ما أرسل به رسله، وظلموا وبغوا وافتتنوا بالقوة والسلطان والعلم، أخذهم اللهُ بغتة وهم لا يشعرون، فسلبهم نعمتهم، وأذهب دولتهم واستخلف غيرهم، ولم تغن عنهم عقولهم ولا علومهم ولا أموالهم من شيء، لما جاء أمر ربك وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 13-14].

فالاستخلاف في الأرض امتنان من الله تعالى وامتحان.

وإليكم أربع مسؤوليات للمستخلفين في الأرض:

أولاً: عبادة الله وحده: بامتثال أمره واجتناب نهيه، وإعلاء كلمته ومتابعة رسوله ﷺ، فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما نرد العزة بغيره يذلنا الله، ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

لما فُتحت قبرص، وجيء بالأسرى جعل أبو الدَّرداء يبكي، فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك!! إنَّ هذه كانت أمَّة قاهرة لهم ملك، فلمَّا ضيعوا أمر الله صيَّرهم إلى ما ترى، سلَّط الله عليهم السَّبي، وإذا سلَّط على قوم السَّبي، فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى إذا تركوا أمره. [ابن كثير البداية والنهاية].

ثانياً: الحكم بالحق والعدل: قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

قال ابنُ كثيرٍ في تفسيره: "هَذِهِ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِوُلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ فَيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ، وَقَدْ تَوَعَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَتَنَاسَى يَوْمَ الْحِسَابِ، بِالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ".

والعدلُ أشرفُ أوصاف الحكم وأقوى دعائم الدولة؛ لأنه يبعث على الطاعة، ويدعو إلى الألفة، وبه تصلح الأعمال، وتنمو الأموال، وتنتعش الرعية، قال الحسن البصري: إن الله تعالى جمعَ الخيرَ كلَّهُ والشرَّ كله في آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

وقال: إن استقامة المِلك بالثلاثة المأمور بها، واضطرابه بالثلاثة المنهي عنها.

ثالثاً: عمارة الأرض: بنشر الألفة والمحبة بين الناس، وبسط الأمن والاستقرار، واستثمار خيرات البلاد، ونشر العلم، وتحريك عجلة الصناعة والتجارة، وبناء السدود، وتحسين الزراعة، واستخراج المعادن، وحماية الأرواح والأعراض والأموال، واختيار الأكفاء لتولي المناصب.

أهدى عبد الرحمن الشَيْزَري كتاباً للسلطان صلاح الدين الأيوبي سماه المنهج المسلوك في سياسة الملوك وختمه بقوله: "إن العدل لا يتحقق من الملك إلا بلزوم أمور منها:

إقامةُ منار الدين، وعمارة البلدان، وتهذيب السبل، والنظر في تعدي الولاةِ وأهلِ العزِّ من الأعوانِ على الرعيةِ؛ لأنَّ تعديَهم منسوبٌ إليه، ومنها الجلوس لكشف المظالم، ومنها اختيار خلفائِهِ في الأمورِ وولاتِهِ وقضاتِهِ وعماله؛ بأن يكونوا من أهلِ الكفايةِ والأمانةِ والحَذْقِ والدرايةِ فيما هم بصدده".

رابعاً: تمثل قيم الخير: بالتحلي بالأخلاق الفاضلة، والتمسك بالقيم العالية، وبتكريم أصحاب الخلال النبيلة وبنشر خصال المؤمنين الحميدة من حلم وكرم، وتراحم وتعاون، وعفو وبر، وأمانة وشجاعة، وصبر وأدب، ورجوع عن الخطأ وصدق، ومحبة للآخرين وتحمل مسؤولية، وحب العطاء وقضاء حاجات الخلق، وجبر الخواطر ومساعدة الضعفاء، وغيرها مما تعلمون من أخلاق الإسلام.

يسعني أن أذكر قصة واحدة في خلق حب العطاء عند المسلم لتروا أثرها في التمكين للحق في الأرض وتستشعروا مسؤوليات المستخلفين في الأرض:

ذكر أبو الحسن الندوي رحمه الله في كتابه الأثير (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، أن شيخاً من علماء المسلمين في الهند كان يعمل في بلدة (رامبور) الهندية براتب زهيد يتقاضاه كل شهر لا يزيد على عشر روبيات فقدّم إليه حاكم الولاية الإنجليزي المستر هاكنس وظيفة عالية في كلية بريلي (وهي في مدينة هندية أخرى) راتبها مائتان وخمسون روبية، ووعد بالزيادة في الراتب بعد قليل، فاعتذر الشيخ عن قبوله وقال: إني أتقاضى عشر روبيات وإنها ستنقطع إذا تحولت إلى هذه الوظيفة.

فتعجب الإنجليزي وقال: ما رأيت كاليوم: أنا أقدم راتباً يزيد على راتبك الحالي بأضعاف الأضعاف، وتترك الأضعاف المضاعفة وتقنع بالنزر اليسير! فتعلل الشيخ بأن في بيته شجرة سدر وهو مغرم بثمرها وأنه سيحرمها إذا أقام في بريلي.

ولم يفطن الإنجليزي بعد إلى مقصود الشيخ، فقال: أنا زعيم بأن هذا الثمر يصل إليك من رامبور إلى بريلي. فتشبث ثالثة بأن حوله طلبة وتلاميذ يقرؤون عليه في بلده فلو انتقل إلى هذه الوظيفة انقطعت دروسهم. ولم ييأس الإنجليزي المناقش من إقناعه فقال: أنا أجري لهم جرايات في بريلي ويواصلون دروسهم هناك، وهنا أطلق الشيخ آخر سهامه الذي أصمى رميته فقال: وماذا يكون جوابي غداً إذا سألني ربي: كيف أخذت الأجرة على العلم؟

وهنا بُهت الإنجليزي وسُقط في يديه وعرف نفسية العالم المسلم، وقضى الشيخ حياته على راتب زهيد يأخذه كل شهر، حباً بالعطاء لعباد الله واستشعاراً للاستخلاف في أرض الله.

أيها الإخوة:

نحن اليوم مستخلفون في هذه الأرض، وربنا يرى سبحانه عملنا فيها: عبادة الله وحده، والحكم بالحق والعدل، وعمارة الأرض بالخيرات، وتمثل قيم الخير تزيد تمكيننا تمكينا ونسعد بها في الدارين

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 128-129].

والحمد لله رب العالمين